

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة لقمان

سورة لقمان، وهي سورة مكية، تبدأ بقوله تعالى:

﴿الْم ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

هذه ﴿آيَاتُ﴾ من ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وهو القرآن، الذي نزل من حكيم خبير.

وهو كتاب حكيم.. في كل ما جاء به من تشريعات، وما حواه من آداب.

وهو: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ كل خير، فينالون الرحمة في الدنيا والآخرة.

والمحسنون هؤلاء، هم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وعلى ذلك، فلا يتصف بالإحسان إلا من أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأيقن بالآخرة، وأنه إذا وجدت هذه الصفات وجد الإحسان وكان الاهتداء بالقرآن، ونال أصحاب ذلك الرحمة من الله، في الدنيا وفي الآخرة.

ثم يقول ربنا: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ هداية وبصيرة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في عقيدتهم وفي سلوكهم.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون برضوان الله، في الدنيا والآخرة.

ثم يبين ربنا أن الكفار ينشغلون عن هذا الخير كله، فيقول سبحانه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَافٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ صنف آخر غير هؤلاء، وهو ﴿مَن يَشْتَرِي﴾ ويختار، ويفضل ﴿لَهَوَ الْحَدِيثِ﴾ وهو ما يُلهي عن طاعة الله، ويصد عن ذكر الله، والاعتبار بآياته، ويُلهي عن القرآن كذلك، وذلك ﴿لِيُضِلَّ﴾ نفسه، أو غيره ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو طريق الهداية، أو الإيمان، أو مزيد الطاعة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حقيقي، يستند إليه، أو يعتمد عليه، فيما يفعل، وقد يكون ممن يدعون العلم والمعرفة.

﴿و﴾ هو في ذات الوقت ﴿يَتَّخِذَهَا﴾ أي: الآيات، أو سبيل الله ﴿هُزُوًا﴾ يستهزئ بها، ويسخر منها. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: شديد مع الذلة والهوان.

﴿و﴾ هؤلاء ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: على الواحد منهم ﴿ءَايَاتُنَا﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا من القرآن، ﴿وَلَّىٰ﴾ أعرض عنها، ولم يستمع لها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبّرًا مترفعًا عن الاستماع إليها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بالمرة، مع أنه سمعها، أو ﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَافٌ﴾ مع أنه ليس في أذنيه شيء.

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أي: فأعلمه ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ينتظره في يوم القيامة.

ولمّا ذكر ربنا تبارك وتعالى جزاء هؤلاء المستكبرين، ذكر بعده جزاء المحسنين.

فقال الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

يعني: أما ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسله، وأحسنوا، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأيقنوا بالآخرة، واستعدوا لها ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي ترضي الله تعالى، وتصلح البلاد، وتسعد العباد: فـ ﴿لَهُمْ﴾ عند الله ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ يكونون ﴿خَالِدِينَ

فِيهَا ﴿ لَا يَخْرُجُونَ وَلَا يَمُوتُونَ، وَهَذَا ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ وَكَانَ وَعْدُ اللَّهِ ﴿حَقًّا﴾ وَاقِعًا لَا مُحَالَةً.

كيف لا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قضى وقدر.  
وهو سبحانه الذي من آيات قدرته أنه:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (١٠)  
أولاً: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ ورفعها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي: حوامل لها ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أصلاً لأنه لا حوامل، أو أن لها حوامل ولكنكم لا ترونها، لأنها قدرة الله تعالى، وهذا من مظاهر عزته سبحانه وحكمته.

ثانياً: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾ أي: جبلاً ثابتة، لـ ﴿أَنْ﴾ لا ﴿تَمِيدَ﴾ تضطرب ﴿بِكُمْ﴾ وبذلك تتمكنون من الحياة عليها، وهذا من مظاهر عزته عز وجل وحكمته أيضاً.

ثالثاً: ﴿وَبَثَّ﴾ أي: خلق ونشر ﴿فِيهَا﴾ وهي الأرض ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أشكالاً، وأصنافاً، لمصالحكم، ومنافعكم، وهذا - ثالثاً - من مظاهر عزته وحكمته.

رابعاً: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ السَّحَابَ﴾ ﴿مَاءً﴾ بقدر، تشربون منه، وتنتفعون به.  
وهذا - رابعاً - من مظاهر عزته، وحكمته.

خامساً: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض بهذا الماء ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن المنظر والطعم والرائحة، وهذا - كذلك - من مظاهر عزته تعالى وحكمته.

أيها الناس..

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

أي: ﴿هَذَا﴾ الذي ذكر هو من بعض ﴿خَلْقُ اللَّهِ﴾ العزيز الحكيم.

﴿فَارُوفٍ﴾ إِذَا: ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ﴾ تعبدونهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه..؟

إن أحدًا من الكافرين لا يستطيع ذلك؛ لأنه ليس أحد ممن يعبدونهم يخلق شيئًا أبدًا!!  
﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ جهل وعمى وضياح ﴿مُبِينٍ﴾ واضح،  
حيث إنهم لا يدركون: عزة الله، وحكمته سبحانه وتعالى في كتابه، ولا فيما خلق، ولا  
فيما فعل؛ ومن ثمَّ يكفرون ويعاندون.

هذا، وبعد أن أصبح واضحًا أن الحكمة في القرآن الكريم. يأتي نموذج عملي  
للحكمة في قصة لقمان، حيث نتعرف من خلالها على أدب تلقي الحكمة من الله.

إذ يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ  
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١٢)

أي: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ من لدنا ﴿لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ وهي: الإصابة في القول والفعل،  
والفهم، والعلم، وحسن التدبير.

وقلنا له: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ على أن آتيناك ذلك، حيث إنه ﴿مَنْ يَشْكُرْ﴾ الله  
﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ ونفع شكره عائد إليه، كما أن ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ النعمة، ولم  
يشكر المولى عليها: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن هذا الشكر، لا يحتاج إليه؛ إذ هو  
﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في نفسه، شكره وحمده أحد، أو لم يشكره ويحمده أحد.

وقد دل ذلك على أن الله كمل لقمان بالحكمة، وأن كل نعمة ينبغي أن يكون عليها  
شكر لصاحبها؛ أدبًا في تلقيها.

وبعد أن أصبح لقمان متحليًا بالحكمة في نفسه، بدأ يُحلي بها غيره، وترينا الآيات  
التالية كيفية نشر الحكمة وتعليمها، إذ يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ  
عَظِيمٌ﴾ (١٣)

وهذه أول الحكم، وأشرف الوصايا، التي بدأ بها لقمان في وعظه لابنه، وغيره..

﴿يُبْنَىٰ لَا شُرَكَ بِاللَّهِ﴾ إذ كل وصية مع مَنْ يشرك بالله، ويستمر على شركه لا فائدة منها، ولا رجاء فيها، كما أن التخلية من الشرك مقدمة على التخلية بآية أدب أو وصية.

حقًا: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: إن الشرك قبيحٌ، وظلم صارخ؛ لأنه وضعٌ للشيء في غير موضعه.

الوصية الثانية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ (١٤) وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)

وهذه هي الوصية بالوالدين، وبخاصة الأم منهما، حيث إن الإنسان ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ضعفاً على ضعف، كلما مرت أيام الحمل، أيضًا ﴿وَفَصَّلَهُ﴾ عن أمه: أي: رضاعه، يكون ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ شاقِّين عليها كذلك.

والوصية هنا هي: الشكر لهما، والإحسان إليهما ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ فأجزيك على هذا الشكر الواجب عليك، خيرًا.

﴿و﴾ بالرغم من هذه الوصية بهما ﴿إِنْ جَهَدَاكَ﴾ أي: أمراك، أو ألزماك ﴿عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك.

﴿و﴾ مع ذلك ﴿صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا﴾ بجسمك ﴿مَعْرُوفًا﴾ أي: بالمعروف؛ فإن حقهما على جسمك فقط؛ إذ هما المريان له.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وأطاعني، بعقلك وفكرك وعقيدتك، فأنا المربي الحقيقي لكل ذلك - وغيره - منك.

﴿تَمَّ إِلَىٰ﴾ في النهاية ﴿مَرْجِعِكُمْ﴾ جميعًا أنت وهما ﴿فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأجازي كل فريق منكم بعمله.

الوصية الثالثة: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦)

وهذه الوصية: في تربية النفس على مراقبة الله تعالى قال له: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا﴾ أي: الخطيئة أو المظلمة مهما صغرت، حتى ﴿إِنْ تَكُ﴾ في صغرهما ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، ومع هذا الصغر ﴿فَتَكُنْ﴾ خفية ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ أو بعيدة ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أو مدفونة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فهي مع هذا كله ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ ويحضرها يوم القيامة؛ ليحاسب عليها صاحبها.

حيث: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَطِيفٌ﴾ يعلم مكانها، وإن خفيت ﴿خَبِيرٌ﴾ بخطرتها.

ثم يقول تعالى على لسان لقمان، وهو يعظ ابنه:

﴿يَبْنِيْ أَقِرَّ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧)

وفي هذه الآية الكريمة نجد: الوصية الرابعة وهي: ﴿أَقِرَّ الصَّلَاةَ﴾ أتمها، وداوم عليها، بحدودها وأوقاتها.

الوصية الخامسة وهي: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما لا تنكره الفطرة السليمة، وبقره الشرع الحنيف ﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما تنكره الفطرة السليمة، ولا يقره الشرع الحنيف.

الوصية السادسة وهي: ﴿وَأَصِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ من أذى مادي أو معنوي في سبيل التزامك بدينك، والدعوة إليه، والأمر بالمعروف منه، والنهي عن المنكر الذي لا يرتضيه. ثم يقول سبحانه:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨)

وفي هذه الآية كذلك نجد: الوصية السابعة وهي: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تتكبر عليهم، ولا تحتقرهم، بل تواضع لهم وأقبل عليهم؛ حتى يالفونك، ويحبونك.

الوصية الثامنة وهي: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متكبرًا، مختلًا، جبارًا؛ حتى لا يبغيضك الله، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ﴾ معجب بنفسه ﴿فَخُورٍ﴾ على غيره، بما أعطاه الله له.

ثم يكمل تعالى هذه الوصايا على لسان لقمان بقوله:

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩) ونجد في هذه الآية كذلك: الوصية التاسعة وهي: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: كن متزنًا، معتدلًا في مشيك، لا متسرعًا، ولا متباطئًا ويقاس عليه طلب الاعتدال في كل الأحوال.

الوصية العاشرة وهي: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي: اخفضه، ولا تبالغ فيه، ولا ترفعه فيما لا فائدة منه؛ لأن الصوت العالي فيه شبه بصوت الحمير و ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أفبحها ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فإنها كأصوات أهل النار، أولها زفير وآخرها شهيق، على خلاف جميع الأصوات.

وبذلك انتهت الوصايا العشرة، التي هي من عيون الحكمة.

ثم عاد الكلام إلى ما كان عليه قبل قصة لقمان، من خطاب المشركين وتوبيخهم في إصرارهم على الكفر، حيث يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢١)

يعني: ﴿أ﴾ عجبتم أيها المشركون، و ﴿لَمْ تَرَوْا﴾ وتعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الواحد عز وجل ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بقدرته؛ لمنفعتكم.

﴿و﴾ كذلك ﴿أَسْبَغَ﴾ وأنتم ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ الكثيرة، سواء كانت ﴿ظَهْرَهُ﴾ تشهد وتحس ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ لا تعلم إلا بدليل يدل عليها.

﴿و﴾ مع ذلك نجد ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فريقًا، هو ﴿مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ ووحدانيته، وقدرته، وآياته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من دليل ﴿وَلَا هُدًى﴾ من رسول ﴿وَلَا كِتَابٍ﴾ من رب العالمين ﴿مُنِيرٍ﴾ أي: واضح بَيِّن.

﴿و﴾ أكثر من هذا، ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن على رسوله ﴿قَالُوا﴾ لا ﴿بَلْ نَتَّبِعْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ حتى ولو كان باطلاً، وهو بالفعل باطل.

عجيب أمرهم.. ﴿أ﴾ يتبعونهم؟؟ ﴿وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾؟ إنه أمر في غاية العجب، ودليل على قلة العقل.

إذا كان حديثنا عن الذين يجادلون ﴿فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ قد انتهى، فإن الحديث هنا يبدأ بمقابلهم، وهم الذين يسلمون وجوههم إلى الله وهم محسنون، حيث يقول سبحانه:

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢)

الآية الكريمة تبين شروط صحة الأعمال من العبد، وقبولها عند الله سبحانه، وهما.. شرطان:

الأول: الإخلاص ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ ينقاد لأمره، ويقبل على طاعته، ويخلص له وحده.

الثاني: موافقة الشرع ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله، يتبع ما أمر به، ويجتنب ما نهى عنه.

مَنْ يتصف عمله بهذين الأمرين: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ التي توصله إلى مرضاة الله، ونعيمه.

﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ فهي راجعة إليه، وسيجازي عليها.

ولمَّا بَيَّنَّ ربنا حال المسلم، عاد إلى بيان حال الكافر، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ﴾ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمْنُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾  
يعني: ﴿وَمَنْ﴾ لم يسلم وجهه إلى الله، بل ﴿كَفَرَ﴾ وعاند، فهذا الصنف من الناس ﴿فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ﴾ ولا تتألم بسببه، واعلم ما يلي:

أولاً: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في يوم الحساب ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ﴾ ونجازيهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾.  
ثانياً: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ولا يخفى عليه سرهم وعلايتهم، وهل سيؤمنون أو سيموتون على كفرهم..؟  
ثالثاً: ﴿نُمْنُهُمْ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ في يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.  
ومن عجيب أمر هؤلاء!! أنه..

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾  
أي: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ هؤلاء الكافرين عن ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؟ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ لك: إنه ﴿اللَّهُ﴾.  
إذن ﴿قُلْ﴾ أولاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور الحجة عليهم والدليل على ألسنتهم على توحده سبحانه وتعالى.

﴿بَلْ﴾ انتبه إلى أن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وضوح هذه الحجة عليهم والإلزام لهم، حقاً ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً.  
اعترفوا بذلك، أو لم يعترفوا.. حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد، حتى ولو لم يحمده أحد.

وقل ثانياً: لا تظنوا أن ما في السموات والأرض من ملكوت الله هذا له نهاية..

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٧﴾

أي: أن ملك الله لا يحصره الحصر، ولا نهاية له.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ ولو صُنِعَ كل الشجر على وجه الأرض أقلامًا للكتابة، وكانت مياه البحار حبرًا ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ بهذا الحبر، وذلك: لكتابة معلومات الله الدالة على كائناته غير المتناهية.

لو حدث ذلك ﴿مَا نَفَذْتَ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِي رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل شيء، سبحانه وتعالى.

ثم قل لهم ثالثًا:

﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

يعني: ﴿مَا خَلَقُكُمْ﴾ جميعًا، وكل البشر ﴿وَلَا بَعَثُكُمْ﴾ يوم القيامة جميعًا، وكل البشر، في قدرة الله تعالى ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ لأنه لا يصعب عليه شيء، إذ يقول سبحانه فقط للشيء: كن فيكون، وعلى ذلك فآمنوا، وأسلموا أمركم الله، وانقادوا لشرعه، واتبعوا رسوله، ولا تعاندوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرٌ﴾ بأفعالكم.

قرأنا فيما سبق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ من نفس سورة لقمان [٢٠].. ولأن ذلك تسخير لما في السموات وما في الأرض، وهو نعمة، وكان بيان ذلك على سبيل الإجمال.. فقد بدأ المولى عز وجل يفصل هنا في بيان هذا التسخير، حيث يقول جل وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ أَيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي أَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)

وهذا بعض مما سخر الله للإنسان من ملكوت السموات.

حيث: ﴿يُولِجُ﴾ يدخل بقدرته ﴿أَلِيلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي أَلِيلٍ﴾ حسب نظام في غاية الدقة والانضباط؛ بما ينفعكم في أمور حياتكم، كما أنه سبحانه ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ تسخيرًا مفيدًا نافعا و ﴿كُلُّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي﴾ بقدره الله، في مسار محدد، لا يتعداه ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ الذي سخر كل هذا: ﴿يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أيها البشر ﴿خَيْرٌ﴾ لا يخفى عليه من أمركم شيء.

﴿ذَلِكَ﴾ التسخير للأجرام، والإبداع في الألوان: ﴿بِ﴾ سبب ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت الواحد القادر ﴿و﴾ هو دليل على أمرين:

الأول: ﴿أَنْ مَا يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ هو ﴿الْبَاطِلُ﴾.  
الثاني: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عز وجل، الذي يفعل كل ذلك ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿أَعْلَى الْكِبَرِ﴾ أي: وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته.  
ويقول المولى عز وجل أيضًا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ يَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

وهذا بعض مما سخر الله - كذلك - للإنسان، ولكن في الأرض، حيث جعل الله ﴿الْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ على الإنسان ﴿لِيُرِيَكُمْ﴾ أيها الناس آية ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده وقدرته.

حقًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ ودلائل ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاء ﴿شَكُورٍ﴾ على النعماء.

﴿و﴾ العجيب !! أن هؤلاء ﴿إِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ﴾ من الماء في البحر، أو من المصائب والنوازل والكوارث في الحياة ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ لينقذهم مما هم فيه، ويكونون ساعة هذا الدعاء والسؤال والاستغاثة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ لا يرون غيره

مُخْلِصًا وَلَا مُنْقَذًا.

﴿فَلَمَّا﴾ استجاب دعاءهم، و ﴿نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ أي: بر الأمان من الغرق في الماء، أو من الغرق في الهموم والمصائب ﴿فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ﴾ أي: مقتصد في إيمانه، بخيل به، باق على كفره، جاحد نعمة الله عليه، وليس هذا بغريب عليه، فقد جحد بالقرآن قبلاً.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ وينكر لنعمتنا ﴿إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ﴾ غدار ﴿كَفُورٍ﴾. هذا، ولمّا وضحت السورة الدلائل على وحدانية الله وقدرته وعظمت بتقوى الله وخشيته، يقول الله تعالى:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٣٣)

نعم، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ جميعاً: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ بالخوف منه، والعمل بكتابه، والإلتزام بشرعه، واتباع رسوله.

﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة، حيث ﴿لَا يَجْزِي﴾ فيه ويدفع ﴿وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ شيئاً، كذلك ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ و ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والحساب والجزاء: ﴿حَقٌّ﴾ لا يتخلف.

وما دام الأمر كذلك، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخرفها عن الآخرة والاستعداد لها.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ في كرمه وعفوه ﴿وَالْغُرُورُ﴾ وهو الشيطان أو الدنيا.

وفي نهاية السورة يبين الله تعالى أن مفاتيح الغيب بيده وحده سبحانه، إذ يقول جل جلاله:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤)

يعني: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ وحده العلم والقدرة على هذه الأشياء:

- الأول: ﴿عَلَّمَ السَّاعَةَ﴾ أي: وقت القيامة فلا يعلمه إلا هو.
- الثاني: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي: المطر، فلا يقدر على ذلك إلا هو.
- الثالث: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ سعيد أو شقي، غني أو فقير.. إلخ، فلا يعلم ذلك إلا هو.
- الرابع: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من الأرزاق أو الأعمال، فلا يعلم ذلك إلا هو.
- الخامس: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ أو وقت ﴿تَمُوتُ﴾، ولكن الذي يدري ويعلم ذلك وحده: هو الله سبحانه وتعالى، وهذه هي مفاتيح الغيب الخمسة لا يعملها إلا الله، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: مبالغ في العلم، يعلم كل الأمور، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها.

\*\*\*